المقال
الإثنين ٢ نوفمبر ٢٠١٥
www.Al-maqal.com

شبهات مشروعة بشهادة المؤرخين الأوائل

▫ لماذا لم تتحرك السيدة عائشة لنصرة الخليفة عثمان بن عفان خلال فترة حصاره رغم قدرتها بعد ذلك على تجهيز جيش لمواجهة خليفة المسلمين على بن أبى طالب؟ ▫ لماذا نكث طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام بيعتيهما لعلى؟ ▫ هل خالفت أم المؤمنين عائشة سنة النبى بعدم التزامها بالتحذير الذى وجهه لها مباشرة: «وإياكِ أن تكونى أنت يا حميراء»؟

محمد السعيد مشتهرى

لقد ذكرت فى مقال سابق بعنوان «أهل السنة والجماعة بايعوا عليا حتى خرج عليه معاوية وقاتله.. فبايعوه!»: «إن ما أنقله من أحداث تاريخية لا يعنى قبولى أو رفضى لها، فالتاريخ عندى تراث بشرى لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى، وإنما أضعه أمام أنصار «الفُرقة والمذهبية»، ليقفوا على حقيقة تدينهم الوراثى المذهبى، وما حملته مصادرهم الثانية للتشريع من فتن ومصائب، تقتضى أن يخلعوا ثوب هذا التدين المذهبى».

وقلت: «ولقد حرصت أن أنقل هذه الأحداث من أمهات كتب المؤرخين الأول، وهم: ابن قتيبة «توفى أواسط القرن الثالث الهجرى»، البلازرى «ت٢٧٩هـ»، اليعقوبى «ت٢٩٢هـ»، الطبرى «ت٣١٠هـ».

لذلك سأكتفى فى مقالى هذا بذكر الأحداث دون الإشارة إلى مرجعيها، وذلك لكثرتها، وثانيا لعلمى أن القارئ الكريم سيسهل عليه التعرف على ما إذا كانت مرجعية الخبر سنية أم شيعية، مع ملاحظة أن الصحيح عند السنة ضعيف عند الشيعة، والعكس صحيح!

هناك إشكالية فرضتها الأسباب التى دعت إلى إحداث الفتن الكبرى، بداية بمقتل خليفة المسلمين عثمان بن عفان، وتهاون جيشه وكبار الصحابة فى فك حصاره الذى دام أربعين ليلة، وانتهى بقتله، وهى:

لقد كان للسيدة عائشة مكانة كبيرة فى قلوب الصحابة، وشخصية قوية يُسمع لها ويُستجاب لأمرها، حتى إنها استطاعت أن تجهز جيشا صمد أمام جيش خليفة المسلمين على بن أبى طالب لمدة عشرة أيام، فلماذا لم تفعل ذلك لفك الحصار عن خليفة المسلمين عثمان بن عفان؟! وأين كانت السيدة عائشة خلال فترة هذا الحصار؟!

لقد علمت السيدة عائشة بمقتل خليفة المسلمين عثمان بن عفان وهى عائدة من مكة متجهة إلى المدينة، وذلك عندما لقيها عبيد بن أم كلاب فسألته عن أحوال المدينة فأخبرها بمقتل عثمان، فقالت: «ثم صنعوا ماذا؟ قال: أخذها أهل المدينة بالإجماع، فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز، واجتمعوا إلى على بن أبى طالب، فقالت: والله ليت أن هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك، ويحك انظر ما تقول؟!».

قال: هو ما قلت لك يا أم المؤمنين، فولولت فقال لها: ما شأنك يا أم المؤمنين والله لا أعرف بين لابتيها أحدا أولى بها منه، ولا أحق، ولا أرى له نظيرا فى جميع حالاته فلماذا تكرهين ولايته؟!

صاحت أم المؤمنين: ردونى ردونى، فانصرفت إلى مكة وهى تقول: قتل والله عثمان مظلوما، والله لأطلبن بدمه، فقال لها ابن أم كلاب: ولم؟! فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت، فلقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلا فقد كفر. قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه، وقد قلت وقالوا، وقولى الأخير خير من قولى الأول.

لقد عادت أم المؤمنين إلى مكة، واجتمع إليها الناس، وقالت لهم: «يا أيها الناس إن عثمان قتل مظلوما والله لأطلبن بدمه»، وفى رواية: «يا معشر قريش إن عثمان قد قتل، قتله على بن أبى طالب، والله لأنملة، أو قالت لليلة، من عثمان خير من على الدهر كله».

وكان **طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام** قد سألا عليا أن يوليهما البصرة والكوفة فرفض، فكان ذلك من أسباب خروجهما عليه، فبايعاه تقية حتى يسمح لهما بالخروج من المدينة، فيتمكنا من السفر إلى مكة واللحاق بأم المؤمنين عائشة!!

لقد نكث طلحة والزبير بيعتيهما لعلى بعد أن سمح لهما بالخروج، وأصبحا من كبار قادة جيش السيدة عائشة، ولما علم على بموقفهما قال: إنه قد بايع أبا بكر مرغما، ومع ذلك فقد ألزم نفسه بشروط هذه البيعة، ولم ينكث بيعته أبى بكر ولا عمر ولا عثمان.

والحقيقة أن الخلاف حول مبايعة طلحة والزبير الخليفة على، وهل كانت طوعا أم كرها، أم طوعا وفى نيتهما الخيانة والغدر، خلاف قد حسمه واقع الصراع الطائفى، وقيادتهما جيش السيدة عائشة فى مواجهة جيش خليفة المسلمين على بن أبى طالب.

لقد استقر الرأى على مسير جيش السيدة عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة لمواجهة جيش على، وفى الطريق مر الجيش بـ «ماء الحوأب»، وهو مكان للماء قريب من البصرة، فنبحتهم كلابه، فسألت السيدة عائشة عن اسم مكان هذا الماء الذى مروا به، فقيل لها: إنه «ماء الحوأب»، فضربت عضد بعيرها وأناخته وقالت: أرجعونى فقد سمعت رسول الله يقول وعنده نساؤه: «كأنى بإحداكن قد نبحتها كلاب الحوأب وإياك أن تكونى أنت يا حميراء».

والسؤال: إذا كانت السيدة عائشة قد سمعت هذا الحديث من رسول الله، فلماذا لم ترجع بعد أن علمت أنها المقصودة به؟! لماذا لم تطع حديث النبى؟! أم أن طاعة النبى ومعصيته لا يملك مفاتيحها إلا أئمة الجرح والتعديل؟!

هل خالفت أم المؤمنين عائشة سنة النبى بعدم التزامها بالتحذير الذى وجهه لها مباشرة: «وإياك أن تكونى أنت يا حميراء»، ومع هذا التحذير استمرت فى معركتها مع جيش على، والتى أسفرت عن سفك دماء آلاف الصحابة؟!

ولكن الغريب أن يخرج علينا من يبرر استمرار السيدة عائشة فى مسيرها بدعوى أن فريقا ممن كانوا حولها خدعوها، وقالوا لها إن هذا ليس هو مكان «ماء الحوأب»!!

ولو أنها رجعت لأنقذت الأمة الإسلامية من كل الفتن الكبرى والمصائب التى حلت بها إلى يومنا هذا؟!

أما خليفة المسلمين على بن أبى طالب فقد خرج لمواجهة جيش السيدة عائشة باعتباره الفئة الباغية الناكثة لبيعته، المخالفة لسنة النبى، ومن هذه السنة التى نسبوها إلى النبى، لإثبات شرعية موقف على فى قتاله جيش السيدة عائشة، أن النبى قال للزبير بن العوام: «ستقاتله وأنت له ظالم».

وفى رواية أن النبى قال لعلى: «أما إن ابن عمتك هذا سيبغى عليك ويريد قتالك ظالما». وفى رواية أخرى وجدناهم يقولون، إن على بن أبى طالب فى أثناء معركة الجمل، سأل الزبير: هل تذكر قول النبى لك «ستقاتله وأنت له ظالم»، فأجاب: اللهم نعم، ولو ذكرت ما سرت مسيرى هذا»، الأمر الذى دفع الزبير إلى ترك المعركة!!

إذن، وحسب هذه الرواية، فإن الزبير ترك المعركة طاعة للنبى، بعد أن تذكر حديثه، ولكن الغريب أن يقابله ابنه عبد الله بن الزبير وينعته بالجبن لأنه ترك المعركة، فيغير الزبير رأيه ويعود مرة أخرى إلى المعركة، بعد أن أعتق غلامه كفارة عن قسمه!!

فهل كان الزبير يخدع عليا عندما قال له: «اللهم نعم»، وهو يعلم عدم صحة هذا الحديث المنسوب إلى النبى، لذلك عاد إلى القتال مرة أخرى؟!

إذن فحتى عصر كبار الصحابة، وفى حياة خليفة المسلمين على بن أبى طالب، وهو إمام الشيعة «ت٤٠هـ»، ثم ما بعد عصر الخلافة الراشدة وإلى عصر التدوين، لم تكن هناك مدونات موثقة من السلطة الحاكمة يمكن عن طريقها معرفة حقيقة المرويات والأحداث التاريخية التى كانت منتشرة على ألسنة الرواة، ومنها كل مرويات الفتن الكبرى!!

لذلك لم يكن غريبا أن يختلف المؤرخون من السنة والشيعة حول ملابسات مقتل الزبير بن العوام، وهو من كبار الصحابة المبشرين بالجنة، ففى الوقت الذى يبرئ فيه الشيعة ساحتهم من مقتله، يرى أهل السنة أن مقتله كان بسبب موقفه من على، وأن مقتله جريمة ارتكبت فى حق الإسلام!!

أما عن ملابسات مقتل طلحة بن عبيد الله فى موقعة الجمل «٣٦هـ»، وهو أيضا من المبشرين بالجنة، فيرى أهل السنة أنه أعلن قبل موته ندمه عن تخاذله وتهاونه فى نصرة عثمان، وفريق آخر حمّل مروان بن الحكم مسؤولية قتله ثأرا لبنى أمية!!

ويرى الشيعة أن هذا الاعتراف يُسقط عن على تهمة الضلوع فى مقتل عثمان، ويجعل خروج السيدة عائشة للمطالبة بالقصاص من قتلة عثمان فى غير محله!!

وأمام كل هذه الإشكاليات التى واجهت أئمة السلف عند تدوين أمهات الكتب، من تفسير وحديث وفقه وتاريخ، والتى تُسقط عدالة كل من كان له دور فى أحداث الفتن الكبرى، وذلك بأى صورة من الصور، خرج علينا من أهل السنة من يدّعون أن وراء كل هذه المصائب التى حلت بالمسلمين شخصية يهودية تدعى «عبد الله بن سبأ» هى التى قامت بدور رئيس فى مقتل عثمان، وفى معركة الجمل، وذلك لرفع المسؤولية عن الصحابة حتى لا تسقط عدالتهم!!

فإذا أردنا الوقوف على المصدر الرئيس لهذا الخبر، وجدناه «سيف بن عمر»، وهو عند علماء الجرح والتعديل مطعون فى ضبطه وعدالته!! أما إذا أردنا الوقوف على المؤرخ الرئيسى الذى نقل عنه دور عبد الله بن سبأ فى فتنة عثمان والجمل، وجدناه «الطبرى»، وهو عند علماء الجرح والتعديل ليس بالثقة!!

والسؤال: هل يستطيع شخص واحد اسمه «عبد الله بن سبأ»، أن يكون وراء كل هذه الفتن، التى استطاعت فى فترة زمنية وجيزة أن تغير مجرى التاريخ لصالح أعداء الإسلام، خصوصا إذا علمنا أن المؤرخين يُرجعون عدم إتمام الصلح بين السيدة عائشة وعلى إلى نجاح المؤامرة التى قام بها ابن سبأ، والتى أدت إلى اشتباك الطرفين؟!

لقد حمل ما يُسمى بالمصدر الثانى للتشريع إشكاليات لا وزن لها عن التحقيق العلمى، ولا تساوى قيمة المداد التى كتبت به، ولا الصفحات التى دُونت عليها، لذلك أسأل أئمة الخلف:

كيف تجعلون هذا المصدر الثانى للتشريع، الذى حمل أمهات كتب التفسير والحديث والفقه والتاريخ، عند كل الفرق الإسلامية، مصدرا تستقون منه أحكام الحلال والحرام، باعتبارها وحيا إلهيا باسم «السنة النبوية»، وقد آتاه الباطل من بين يديه ومن خلفه؟!

«أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

طلحة بن عبيد الله

كان طلحة فى تجارة بأرض بصرى حين لقى راهبا من خيار رهبانها، وأنبأه أن النبى الموعود سيخرج فى مكة، فأسلم وقاتل فى عدد من الغزوات مع الرسول. لُقب بصقر أحد، وطلحة الخير.

الزبير بن العوام

ابن عمة النبى محمد، وأبو عبد الله بن الزبير (594م – 656م). ولد سنة 28 قبل الهجرة، وأسلم وعمره اثنتا عشرة سنة. كان ممن هاجر إلى الحبشة، وهاجر إلى المدينة. تزوج أسماء بنت أبى بكر، وعمته هى أم المؤمنين خديجة بنت خويلد.